السّرد الواقعي والتّاريخ التّخييلي في رواية "مجنون الحكم"لبن سالم حميش.

The Real Narrative and the Imaginary Story in the Novel "Majnoun Al-Hakam." by Bensalem Hamish.

أ. وهيبة حمادي
د. نصيرة عشي

قسم اللغة والأدب العربي -جامعة مولود معمري تيزي وزو (الجزائر).
مخبر التمثلات الثقافية والفكرية
Hamadiwahiba@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2019/07/30 تاريخ القبول: 2019/11/26

ملخص: مثلت الرّواية إطارًا ضروريًا لمساءلة التّاريخ وبالنّظر إلى قيامها على التّخييل فلقد استطاعت الأخذ من التّاريخ دون إلزامية الحقيقة، وهذا التّعالق بين الرّواية والتّاريخ سمح بمراجعة الحدود الفاصلة بينهما وتمثل رواية "مجنون الحكم" لبن سالم حميش نموذجا للحوار بين نصين أحدهما قائم على تدوين وتأريخ وتوثيق بكل ما يحمله من حقائق وشكوك والثاني قائم على استرجاع جزء من هذا التّاريخ حتى يساعد على فهم الواقع الحالي، فمجنون الحكم هو نسخة متوفرة حاليا بأشكال مختلفة وأسماء مختلفة ومازال التّاريخ يكرر نماذجه وتأتي الرّواية لتعيد نسج النّموذج واختزال الكثافة النّصية التيّ قدمتها كتب التّاريخ عن الحاكم بأمر الله المنصور.

يؤسس التداخل بين التّاريخ والسّرد لكتابة تعيد ديناميكية التّاريخ إلى الواجهة من أجل فهم الرّاهن، وتفكيك بنية النّص الرّوائي القائم على التّاريخ هو إعادة تركيب لدلالة الواقع الذّي هو في الأصل نتيجة هذا التّاريخ وما الرّواية إلاّ مستوى تخيلي يتملص من المسؤولية التّاريخية وإنتاج رسالة جديدة عن نمطية الحكم في الإرث العربي الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: التاريخ، الرواية، الرسالة، التواصل، التناص.

Abstract: History is a textbook full of paradoxes, and because it focuses on the memory of the people, it is necessarily returned to them, and this need is felt only by those who find in the present questions that cannot be answered. The novel represented a necessary framework for the accountability of history and given its bases on imagination, it was able to

take history without imposing the truth. This connection between the novel and history allowed the revision of the boundaries between them. The novel of Majnoun al-Hakam represents a model of dialogue between two texts: one based on codification, history and documentation with all its facts and doubts. The second is based on retrieving part of this history to help understand the current reality.

'Majnoun al-Hakam' is a copy currently available in different forms and different names and history is still repeating its models. The novel comes back to rewrite the model and reduce the textual density presented by the history books about the ruler by the order of Allah al-Mansur. The overlap between history and narration establishes a writing that re-dynamically resurrects history in order to understand the present. The interplay between history and narration establishes a writing that re-dynamically resurrects history in order to understand the present.

key words: history, novel, message, communication, textually.

1. مقدمة:

الرّواية أحد أنواع فنون الأدب الذّي استطاع أن يفرض وجوده على باقي الفنون النّثرية لكونها قادرة على استيعاب انشغالات الحياة والإنسان، ونهلت من روافد متعددة، ومن بين هذه الرّوافد السّردية التّي نهل منها النّص الرّوائي التّاريخ (الحقائق التّاريخية)، إذ اتخذ الكثير من الرّوائيين التّاريخ كمادة خامة شكلوا بها إبداعات روائية استندت لواقع تاريخي وتجاوزت في بنائها الفني سطحية السّرد التّاريخي إلى ثراء السّرد الرّوائي الذّي يؤسسه المتخيل الرّوائي، ومن بين الرّوائيين الذّين اتخذوا من التّاريخ مرجعًا ومادة خامة في إبداعاتهم الرّوائي المغربي "بن سالم حميش" برواية "مجنون الحكمّ التّي ترصد شخصية "الحاكم بأمر الله الفاطمي" إذ جسد من خلال الرّواية متخيلا روائيا مفعما بروح التّجريب والمغامرة متجاوزا الواقع المألوف من خلال شخصية تاريخية جمعت بين التناقض والتّضاد والجنون، فهي رواية يتماهى فيها التّاريخ والسّرد مكونا نصًا ابداعياً يقوم على رسم المتناقضات بين الواقع والمتخيل هذا ما يجعلنا نتناول موضوع السّرد الواقعي والتّاريخ التخييلي في "رواية مجنون الحكم" من أجل الاجابة عن عدة تساؤلات منها ما الرّواية التّاريخية ؟ كيف يتجلى السّرد الواقعي والتّخييلي في الرّواية؟ وكيف تجلت المرجعية التّاريخية في الرّواية؟

2. السّرد والتاريخ أيّة رسالة؟:

تنطلق الكتابة من نقطة زمنية ضرورية تبنى منها هيكلاً لشكل النّص الناتج عنها، وتعد الرّواية من أكثر النّصوص تمثيلاً للزمن بكل أقسامه وتصنيفاته، فالرّوائي يبدأ وينهي السّرد وبين هاتين النّقطتين يضع ما يشاء من بدايات ونهايات تضمينية، فنجده بذلك يتضمن التّاريخ من خلال الزّمن الماضي الذّي تتم العودة إليه بالضرورة في الكتابة الرّوائية والإشكالات التّي نود طرحها هنا تتمحور في مدى ملاءمة الكتابة الرّوائية لاحتواء التّاريخ، ما هي الحدود الفاصلة بين الخيال السّردي والواقع التّاريخي فيما اصطلح على تسميته بالرّواية التّاريخية؟.

إنّ التّاريخ ذاكرة جماعية تعادل الذّاكرة الفردية وتحتويها والتّفريط فيه من شأنّه أن يعرض مجتمعًا بكامله إلى فقدان الذّاكرة والإصابة بالعمى و«التّاريخ ليس مجرد استعادة للماضي وإعادة تسجيل له على أوراق جديدة وإنّما تجريد الحدث من قيود الزّمان والمكان ونقله وتعديته ليتمكن الإنسان من الإفادة منه في التّعامل مع الحاضر ورؤية المستقبل»[1] ونجد أنّ هذه الذّاكرة الجماعية تتوزع على مجموع ذاكرة فردية وفي هذا المقام يتجلى التّاريخ كموضوع سردي في العمل الأدبي يقابل حينا ويقارب حينًا أخر بين ما نقلته المصادر وما يتمثله الرّوائي.

تمثل رواية "مجنون الحكم" لـ"بنسالم حميش" رواية تاريخية وذلك بالنّظر إلى الموضوع السّردي الوارد فيها والذّي يتناول شخصية تاريخية تتمثل في الحاكم بأمر الله المنصور الخليفة الفاطمي إضافة إلى كثرة الإحالات التّاريخية الواردة في متن الرّواية.

تستوقفنا هذه الرّواية في الضّرورة الفنية والفائدة العلمية من العودة إلى التّاريخ ماضي تفصلنا عنه قرون عدة وزخم الأحداث الراهنة التي تشكل مادة سردية افتراضية.

3. حدود التّواصل التّاريخي في الرّواية التاريخية:

تذهب أغلب التّعريفات لرواية التّاريخية إلى أنّها "عودة للماضي بغية إعادة إنتاجه مجددًا إنتاجًا يتجاوز حدود التّاريخ تجاوزًا محدودًا تبرز فيه أهداف اللجوء إلى هذا اللّون من الأدب.[2]

يحتفظ التّاريخ بماهيته المستقلة عن الرّواية ويبدو غير قابل لإعادة الإنتاج في ذاته وهو بالتّالي يلخص حسرة الإنسان أمام الماضي المنصرم أو الزّمن الذّي لم يتمكن قبضه ولا استرجاعه إلا عن طريق الذّاكرة والخيال وحين تقترح الرّواية إعادة إنتاج التّاريخ فهي لا تقوم إلا بافتراض وجودي خطير من خلال خلق مستوى تخيلي يوازي النّسخة الضّائعة من التّاريخ وسنقارب هذا المستوى التّخيلي من خلال الفعل السّردي الذّي من خلاله يقدم لنا "بن سالم حميش" الحقيقة التّي صنعها هو عن فترة تاريخية معينة وعن شخصية الحاكم بأمر الله وهو ما

يبرز عدم اكتفاء الرّوائي بما قرأه وما عرفه عن هذا التّاريخ وكيف انتقل إلى الكتابة التّي تضعه في سياق تواصلي إلزامي، يذهب **"فيكو"** إلى أنّ من الشّرط الضّروري لمعرفة أي شيء معرفة حقيقية هو أن يكون العارف قد صنعه بنفسه ويكون لديه اليقين بهذا المعنى ».[3]

حرصت رواية "مجنون الحكم" على أن لا تبق البّنيات التّاريخية مجرد محكيات مسرودة روائيًا أو مجرد استشهادات مضمنة في تلافيف السّرد دون أن يطفو منها شيء على السّطح بل جعلت من النّص التّاريخي وسيلة فنية منحت الرّواية فرصة اصطحاب الشّاهد في كل مراحل الحكي وكأنّ النّص مرافعة روائية تستدعي الإثبات في كل حين بأنّ ما تحكيه ليس خيالاً لكنه حقيقة".[4]

نلاحظ هنا أنّ التّاريخ يحتاج إلى سرد ذاتي حتى يخرج من الماضي وتحدث صناعة جديدة له وهو ما ذهب إليه" **فيكو**" إلى أنّ "الشّرط الضّروري لمعرفة أيّ شيء معرفة حقيقية هو أن يكون العارف قد صنعه بنفسه، «وتبدأ هذه المعرفة بإعادة كتابة هذا التّاريخ وصنع معان جديدة له وكأن الرّوائي لم يصدق ما قرأ عن هذا التّاريخ وتلك الشّخصية فأراد نقل شهادته عن طريق السّرد دون أن يترك جانبًا من الشّواهد النّفسية التي ترافق عملية الحكي، يصنف **"عبد السلام أقلمون"** رواية "مجنون الحكم" في "خانة الرّواية الجديدة التّراثية التّاريخية وهي صنف من الرّواية العربية دأب على الحفر في الموروث السّردي عن أحداث تاريخية وأشكال تعبيرية تسمح بتنضيد الشّكل الرّوائي وإغنائه جماليًا دون التّضحية بأطروحته»[5] فتجديد الكتابة الرّوائية التّاريخية يتجاوز المستوى السّطحي لها وترد لفظة التّاريخ بشكل محوري في رواية "مجنون الحكم" إذ تُربط بدلالتها الحتمية تكتب عن رغبة فالتّاريخ هو من ينتقي مكوناته ويقرر مصيرها لذا نجد وصفًا دقيقًا لماهية التّاريخ في رواية "مجنون الحكم" :«التّاريخ لا يذكر إلاّ من طبعه وقاوم اعوجاجه باعوجاج معاند، أنّه فاسد الطبع، ويهوى من يكسر ثقالته وتقاليده ويقض مضاجعه».[6]

وهو ما يبرر ورود الرّواية على شكل عمل بحثي يتضمن أبوابًا تحيل إلى مراحل حياة الحاكم بأمر الله ويختمها بهوامش ومراجع وهو ما يجعلنا نتساءل عن ماهية العمل الرّوائي الذّي قدمه بـ"نسالم حميش"، إذ أنّه ينزاح إلى الأعمال التّوثيقية وتمثل هذه الإحالات حدودًا نظريّة يصنعها الرّوائي ليدرج ضمنها مستواه التخييلي الذّي يصعب استخلاصه لكونه يضم تفاصيل جزئية غير قابل للعزل من الإطار الرئيسي فبعد عرض هوية الحاكم بأمر الله من خلال تكرار الراوي لكلمة "هو":" هو أبو علي منصور (الملقب بالحاكم بأمر الله ابن العزيز بالله نزار ابن المعز القائم بالله معد فاتح مصر وباني القاهرة والأزهر) (....) هو العبيدي الفاطمي المغربي الأصل، المصري المولد والدّار والمنشأ.."[7] إنّ التّركيز على حياة شخصية الحاكم بأمر الله كما

أوردتها كتب التّاريخ يبين التّسلط الذّي وقع على المضمون التّاريخي وكيف حاول الرّوائي الإشارة الضّمنية إلى وقوع التّاريخ العربي الإسلامي في الفردانية المطلقة «فالتّاريخ يدرس البشرية في مجموعها بدل تركيزه على الأفراد وينصب على الأحداث والتّغيرات الواقعة على مجتمعات بأكملها بدل أخذ أفراد بشكل معزول»[8] ومن قراءة رواية "مجنون الحكم" يتضح أنّ التّاريخ مسخر لسرد وقائع وقصص تدور حول شخصية الحاكم بأمر الله تتحكم فيها ثنائية متضادة إذ يجمع بين الخير والشّر في آن واحد والحق والباطل وهو ما كرس إجماع الكتابات التّراثية على فساد سيرته «وكان رديء السّيرة فاسد العقيدة مضطربًا في جميع أموره يأمر بالشّيء ويبالغ فيه ثم يرجع عنه ويبالغ في نقضه»[9] تتجه الاقتباسات التّي اعتمدها الرّوائي إلى تكريس حكم قيمي سلبي عن شخصية الحاكم بأمر الله وهو ما يجعل الرّسالة التّاريخية حتمية وقاصرة فهي لا تقدم كل التّوضيحات والشّروحات اللازمة لفهم ما لا يقبله العقل وهو الجمع بين الشّيء وضده، تتموضع الكتابة الرّوائية عن التّاريخ كمستوى تحاوري قابل لاحتواء النقص التاريخي.

4. الحوار السّردي والأحادية التّاريخية:

يفتح "بن سالم حميش" النّص التّراثي والذّي قد يحمل جانبا من التّاريخ على التّخييل السّردي ويخرج شخصية الحاكم بأمر الله ويقدم لها حضورًا سرديّا من خلال إنزاله مرتبة الرّاوي في الرّواية، غير أنّ هؤلاء الذّين كتبوا عن الحاكم بأمر الله يصفهم بالمؤرخين، وهو يعود إلى الطّريقة التّي دون بها التّاريخ على شكل قصة «حتى بات التّمييز في بعض الأحيان بين الأديب والمؤرخ أمرا غير سهل وفي تراث الأمم نماذج من هؤلاء ففي التّاريخ الإسلامي هناك الجاحظ وابن قتيبة الدينوري والعماد الكاتب الأصفهاني وابن المستوفي، ممن جمع بين الكتابة الأدبية الفنية وبين عرض الأحداث التاريخية».[10]

وتبقى رواية "مجنون الحكم" عملا تخييليا على الأقل بالنّظر إلى تصنيفها الأجناسي وخلافًا لبعض الكتابات الرّوائية التّي تحاول التّركيز على الصّور الايجابية والبطولية فيما يتعلق بالمدونة التّاريخية، تقدم لنا رواية "مجنون الحكم" وجهًا أخر منفرا ومسبوقا بأحكام عن هذه الشّخصية وتظهر عملية انتقاء المقولات التّي تركز على سلبية شخصية الحاكم بأمر الله ولكن أكثر من ذلك تعرض تساؤلات ومحاولة فهم ما لم يقم المؤرخون بتعليله.

تحاول الرّواية سد هذا الفراغ التّعليلي من خلال خلق علاقة سببية بين النّص الرّوائي ومرجعياته الخارجية فكل نص أدبي يتضمن حتما عملية انتقاء من الأنساق الأدبية والاجتماعية والتّاريخية والثّقافية التّي توجد كمجالات مرجعية خارج النص».[11]

غير أنّ المرجعية الخارج نصية هنا بعيدة زمنيًا عن الرّوائي وهو ما يطرح سؤال ضرورة الكتابة عن تاريخ غابر وجدوى تكثيف وجود هذه الشّخصية التّي تفرض الإلغاء وليس إعادة الإحياء؟

تتبدى الإجابة عن هذا السّؤال في غموض الحاضر أصلا وفي كون التّاريخ يتواصل بشكل لاشعوري كقلق حضاري وهاجس وجودي، يحاول الرّوائي فهمهما أم أنّ هذه الكتابة هي رغبة مضمرة في كسر أفق القارئ من خلال خلق فضاء واقعي وتخييلي في آن واحد.

وتحمل المدونة التّي عاد إليها "بن سالم حميش" بعدًا عجائبيًا وهي بذلك تؤكد على ولع الكتاب بالماضي وهو حال الثّقافة العربية عموما: «فالثقافات الماضوية أي التّي تحن للماضي تستورد الخيال بكثرة وتبحث عن مجدها في الفترات الغابرة وفي البلدان النائية».[12]

والواقع أنّ ما تم الرجوع إليّه كان خيالاً خاصة ما تعلق بحوار الحاكم بأمر الله وهو حوار داخلي يعرض فيه هذه السّمة العجيبة في شخصية الحاكم بأمر الله "فهو الدخان" ولكن "المبين «يقول الراوي /الحاكم بأمر الله" أنا الدخان المبين – التّاريخ سيعتقلني، باسم الحاكم بأمر الله ولغة الضّاد، ميال أنا إلى الأفق وصراع الأضداد، من فهمني أدرك بأنّ عهدي لابد أن يكون مشهودًا وإلا فهو والخردلة على حد سواء ».[13]

يقدم لنا الرّاوي حكمًا من التّاريخ على التّاريخ، تاريخ السّابقين الذّي يتحدد كمرجعية كاملة وصحيحة في مقابل تاريخ اللاحقين الملزم بقبول الماضي وإلا حكم عليه بالعدم ويظهر كذلك في كلمة "خردلة " التّي استعملها الحاكم بأمر الله ليعين بها كل من لم يفهم عهده، هذا الحوار السّردي المعروض في الرّواية يبنى على ثنائية تواصلية هي الحاكم بأمر الله وكتب التّاريخ، فالرّوائي ينسج علاقة بين الماضي والحاضر ويخلق توترا منذ البداية يجعل القارئ يتشوق لمعرفة هذه الحقيقة التّخييلية التّي ستعوض مقولة كتب التّاريخ وهو الأمر الذّي يستدعي التّساؤل حول السّياق التّاريخي للأحداث وضرورة سردها في وقتنا الحالي «فالدّلالة في النّصوص لا يمكن أن تضبط بشكل تام إلا بالرّجوع أيضًا إلى السّياقات الخارجية، حيث أنّ سياق كتابة النّص ليس هو بالضّرورة سياق قراءته».[14] والدّلالة هنا نجدها تتوزع على ثلاثة مستويات الأول خاص بواقع الأحداث، الثّاني بكتابته التّراثية، والثّالث يبينه "بن سالم حميش" في هذه الرّواية.

تعود شخصية الحاكم بأمر الله بهيئة الرّاوي السّير ذاتي وهو نوع "من الرّواة الذّي يسرد الحكاية التي اشترك فيها ويمكن أن تكون حكايته الخاصة إما متعلقة بطفولته أو بمرحلة هامة من حياته".[15]غير أنّ هذا الراوي لا يكتفي بسرد الأحداث إنّما يصدر الأحكام على مقولة المؤرخين كما يتضح في هذا المقطع من الرواية "سيقول المؤرخون الوعاظ وأكلوا لحم الميت: إنّي أنا الحاكم بأمر الله كنت أرهق العباد حيرة وطغيانا وكنت سفاكا للدماء، وكنت المحنة

الكبرى والبلاء"[16] يقيّم الرّاوي "الحاكم بأمر الله " ما قيل عنه، وهذه الكفاءة السّردية التّي تحاول أن تبرر ما سجله المؤرخون دون توضيح أو شرح منطقي، ويقدم لسد هذا الفراغ الدلالي مبرر قيام الحكم بالقوة: «وعلي سجلوا هذا القول: الحكم الجاري مجرى سنن الحياة هو إما تغلب الأمة أعدائها، وإمّا أن تُغلب هي وتقهر (.....) ونعم القول قول محكم: ومن لم يذذ عن حوضه بسلاحه يشرد، ومن لا يَحكم الناس يُحكم ».[17]

تأتي أقوال الرّاوي هنا لإعادة كتابة التّاريخ بشكل رجعي علما أنّ الزّمن غير رجعي، إلاّ أن الكتابة في خطيتها الضّرورية تسمح بخلق اتجاه معاكس يصير فيه الحاكم بأمر الله هو من يؤرخ لمؤرخيه وينتقدهم بالمناسبة، وتفضح هذه العملية خاصية أساسية في التّاريخ وهو أنّ «التّاريخ يعكس ذاتية المؤرخ، فيجب القول أنّ مهنة المؤرخ تنمي ذاتية المؤرخ فالتّاريخ يصنع المؤرخ بالقدر الذّي يصنع المؤرخ التّاريخ بل بالأحرى تصنع مهنة المؤرخ للتاريخ والمؤرخ على حد سواء »[18] إنّ الرّاوي يتطرق لفلسفة التّاريخ فهو لا يكتفي بتكذيب المؤرخين وما قالوه وذلك حين يتهمهم بالمتقولين :«ولو عرف هؤلاء المتقولون كنه التّاريخ بما هو تاريخ تصنعه سلطات السّيف وأحكام الشّدائد، والآلام لأدركوني وأدركوا أنّ من طبيعة السّياسة الاستبداد»[19]وبعد هذا الموقف من المؤرخين يحاول أن يقدم وجها آخر للتاريخ من خلال شرح بنيته ويكشف حرج ما يسميه بول ريكور «بحرج المؤرخ الذّي يجد نفسه محاصرًا من الطّابع الحدثي للتّاريخ والطّابع البنيوي للقصة وبين الشّخصيات التّي تمر بين القوى البطيئة التّطور فعليه أن يواجه كل هذا »،[20]هذا الدّور الذّي يضطلع به الرّاوي في الرّواية يتجاوز مستوى سرد الأحداث إلى تأويلها وكشف بنيتها.

إنّ الرّاوي يستعمل هنا الشّهادة من أجل خلق مستوى شك فيما تناقلته كتب المؤرخين «وهذه البنية الحوارية للشهادة تظهر مباشرة بعدها الائتماني فالشّاهد يطلب تصديقه فهو لا يكتفي بترداد "كنت" بل يضيف "صّدقوني" وعليه فإن المصادقة على الشّهادة لا تكتمل الإجابة على شكل صدى من قبل متلقي الشّهادة وقبولها، هنا يتم تصديق الشّهادة»[21]

إنّ الحاكم بأمر الله /الراوي وهو يخلق مستوى التّصديق هذا من خلال دحض مقولة المؤرخين وتموضعه كشاهد عيان لمرحلة يحاول تبريرها بحجة الدّولة وداعي السّلطة وحتمية التّاريخ ويورد في شرحه إنّ التّاريخ يتعالى على ما قاله المؤرخون وتزدوج وظيفته في النّص إلى راوي لسيرته من جهة ومفسر لتلك السّيرة من جهة أخرى، وهنا يتموضع الحوار السّردي كبديل عن الأحادية الدّلالية التّي تفرضها مقولات التّاريخ، ويجسد ذلك في الرّواية اتفاق المصادر التّاريخية التّي عاد إليّها الرّوائي لرسم شخصية الحاكم بأمر الله وهي تصب في حتمية الزّمن الماضي «فمع أنّ التّاريخ فريد وغير قابل للقلب، لكنه أيضًا ملائم للتنويعات الخيالية والحدوس

الماهوية»[22]، وهذه التّنويعات الخيالية نجد العديد منها وقد عاد "بن سالم حميش" إلى نقل جوانب كثيرة منها قول الحاكم بأمر الله :«إن أردتم يا دعاتي أن تدعوا النّاس إلى تأليهي عليكم بجبال الشّام فإن أرضها بكر وأهلها سريعو الانقياد والتّعصب وما عدا هذا الصّقع ما أصعب ربوبيتي على النّاس، جذروني يا دعاتي وقولوا عني ما قالته أسفار النبوات في الكتاب المقدس أدعو النّاس إلى أن يوحدوني أدعو النّاس الحفاة العراة إلي يا دعاتي وكبلوا قلوبهم بأذيالي وبطونهم بأهدابي وهباتي ومن مات منكم في سبيلي فله الجنة من أدناها إلى سدرة المنتهى يجول فيها وينعم بما أحب واشتهى».[23]

يوضح التّلفظ السّردي الأحادية التّاريخية التّي نقلت صورة سلبية عن شخصية الحاكم بأمر الله من خلال أحكام تقييمية تصفه في خانة الحكام الظّالمين، بدل أن يكذبها كراوي في هذه الرّواية يؤكدها ويرجعها لطبيعة الحكم التّي لا تقبل الخذلان واللين وأنّ الحكم بدون قوة لا تقوم به الدّول وهو يقدم لنا صورة عن أمر حكم الدّولة الفاطمية فهناك من يعتبر أنّ الحاكم بأمر الله شديد البطش والسّفك ولكنه كان يتخذ السّفك وسيلة لا غاية وكان القتل في نظره خطة سياسية وكان عنيف الأهواء والنزاعات ولكنها لم تكن نزاعات شهوة نفسية ومنه يكون وصف الذهبي أنّه كان خبيثا ماكرا ردئ الاعتقاد هي صفات ليست من خواص الذّهن المضطرب الذّي لا يفكر دون تدبير ويعمل دون غاية».[24]

نلاحظ إذا مقابلة للشهادات المنقولة عن هذه الشّخصية التّي يرتكز عليها "بن سالم حميش" لرسم صورة الحاكم ويخرجه من إطاره التّاريخي ويعرضه في واقعنا الحالي ليعكس من خلال صورة نمطية عن الحاكم من خلال عنوان الرواية "مجنون الحكم" ولذا نجد إحالات أخرى تكشف الصّراعات التّاريخية في علاقتها بالفتنة الدّينية بين المسلمين وهو ما يفتح مجالا للتشكيك في مصداقية الشّهادات المسجلة في الكتب التّي عاد إليها "بن سالم حميش" ومفاد هذه الإحالة هو الحفر في الاعتقاد الدّيني المذهبي المنقسم إلى شيعة وسنة وتبرير المغالاة الواقعة في السّرد وتجاوز الحكم والتّقييم فالحاكم بأمر الله أراد أن يحارب الانحلال والفساد الذّي انتشر في مصر إذ يقول العلامة الدوزي «لم تكن قوانين الحاكم سخيفة كما يحب أن يصورها الرواة السنيون الذين اعتادوا أن يقدموا إلينا من هذا الأمير شخصية مضحكة لا صورة حقة»[25] ولعل أقسى صورة تم التركيز عليها ما ورد في الفصل الثّاني من الرّواية والمعنون العبد مسعود آلة العقاب اللواطي ويتقدم التّاريخ بنصين الأول مقتبس من كتاب "ابن كثير البداية والنهاية" والثاني مقتبس من كتاب "بدائع الزهور في قائع الدهور لابن الياس".

6. التّناص التّاريخي وتوثيق السّرد:

يتداخل التّاريخ بالسّرد إلى درجة لا يمكن الفصل بينهما، إذا نجد أنّ الرّوائي "بن سالم حميش" نسج نصه الرّوائي على نهج الكتب القديمة أيّ أنّ الرّوائي وظف شكل الكتابة التّاريخية على صعيد الأسلوب كأن يحاكي المؤلف طريقة أحد المؤرخين في تسجيل الأحداث وتدوينها، فرواية "مجنون الحكم" يشبه أسلوبها أسلوب كتاب البّداية والنّهاية والكامل في التّاريخ لابن كثير، النّجوم الزّاهرة في تاريخ مصر والقاهرة لابن ثغري بردي، الحاكم بأمر الله وأسرار الدّعوة الفاطمية لعبد الله عنان، فالرّوائي "بن سالم **حميش**" اعتمد على لغة القدامى في تحرير السّجلات والمراسيم والقرارات التّي أصدرها الحاكم بأمر الله لرعيته، إذ تحضر هذه النّصوص بشكل مزدوج في نص الرّواية والنّص الأصلي لها وهي تتمحور في وقائع تاريخية جعلها الرّوائي تستمر من خلال سردها مجددًا، فلم تعد مجرد تاريخ ولما نحلل عينة من المواضيع التّي وضعها كتناص «فالنّص الأدبي لا ينشأ من فراغ بل ينتج ضمن بنية نصية منتجة سلفًا، هي التّي تشكل الخلفية النّصية للقارئ فالنّص يظهر في عالم مليء بالنّصوص الأخرى المعاصرة أو البعيدة، التّي يحاول النّص الجديد أن يتّخذ لنفسه مكانًا بينها من خلال جدلية الإحلال والإزاحة للنصوص التي كُتبت قبل ظهوره، تلك الجدلية لا تبدأ بعد اكتمال النّص، وإنّما تبدأ منذ لحظات تخلق أجنته الأولى، وتستمر بعد تبلوره واكتماله وهذا النّص الجديد قد ينجح في إبعاد النّص المزاح أو نفيه لكنه ،لا يتمكن أبدًا من الإجهاض عليه كلية أو من إزالة بصماته، لأنّ النّص المزاح يترك ترسباته في شتى طبقات النّص الجديد وهذا ما نسميه التناص»[26]. والتناص أو التناصية من المصطلحات المولدة، وهو مشتق من كلمة النّص بصيغة التّفاعل الدّالة على المشاركة، أي مشاركة النّص الغائب النّص الحاضر، ودلته **جوليا كريستينا** بقولها :« أن كل نص عبارة عن لوحة فسيفسائية من الاقتباسات، وكل نص تشرب وتحويل لنصوص أخرى».[27]

نشأت رواية "مجنون الحكم" من رحم التّاريخ وتشكلت نتيجة انصهار فسيفساء من مصادر تاريخية غنية ساهمت في ميلادها فجاء نصًا واقعًا بين التّخييل والتّاريخ، فالنّص الروائي "مجنون الحكم " نص لا حق متخيل عاد إلى النّص السّابق "التاريخ " تتضح منها شبكة من الدّلالات يريد بها الرّوائي إعادة رسم قانون الحكم العربي الإسلامي والقائم على تمثل السّلطة وفق منظومة تبني شرعيتها على احتكار القوة والمتعة وسنفصل في ذلك.

تقوم دعامة القوة على تصور ذكوري لممارستها بشكل مكتمل وعليه تؤسس الحكم للرجال وضرورة إبعاد المرأة من الفضاء السّياسي وفضاء السّلطة والعودة إلى تاريخ المرأة في الحكم العربي الإسلامي يُؤكد على ذلك وقد تجلى في الرّواية من خلال محاولة الحاكم بأمر الله

تشويه صورة ست الملك ومحاولة إبعادها عن الحكم؛ ويظهر ذلك من خلال ملفوظ الحاكم بأمر الله لأخته والذي يتعرض لأخلاقها.

ست الملك شخصية تاريخية كرهت من ظلم أخيها وسفكه لدماء الناس قررت أن تحدثه وتجعله يغير أفعاله لكن الحاكم بأمر الله اتهمها في شرفها يظهر ذلك من خلال هذا المقطع «حدثيني عن بيتك أنت الذّي حولته إلى بيت دعارة تدخلين إليه الرّجال العشاق المتناوبين عليك وتمكنيهم من فرجك المهتوك وجسمك الملعون، وقد بلغني أنّ شاعرًا فاسقًا كنت تواصليه بالملاطفات والتفقدات قال فيك كلاما مطلعه « كم تنهدت لنهد أتى تائها بأكله المتألق »؟[28]

ويصرح في مقطع أخر «كان علي أن أخمد أنفاسك منذ أن أعصرت وقنب صدرك الفاجر وماتت فيك الفتاة الخريدة الخروعة والطيعة ».[29]

تعد المرأة من المواضيع التي تلقت مجموعة من النّصوص التّي تحدد دورهَا وواجبهَا وخاصةً الممنوع عنها ويتجلى ذلك من خلال المرسوم الذّي أصدره الحاكم بأمر الله في خصوص النّساء من خلال نص ورد في الرواية: « في السّنة الثّامنة عشرة من ربع قرن الحاكم صدرت ضد المصرين وعلى الخصوص منهم النّساء وأهل الغناء والتّنجيم، سجلات ماحقة دوختهم وهدت عزائمهم ومنها سجل في تحصين النساء «إني حقا أمرت النساء المحصنات بلزوم بيوتهن ومنعهن من الظهور خارجها أو التطلع من الطيقان والشرفات ..وأمرت بعقاب كل اسكافي يصنع الخفاف وكل صاحب حمام يفتح لهن أبوابه »[30]، وبالمقابل نجد النّص الأصلي الذّي اقتبس منه وهو كتاب النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة « السنة التّاسعة عشرة من ولاية الحاكم المنصور وهي سنة خمس وأربعمائة فيها منع الحاكم النّساء من الخروج من بيوتهن وقتل بسبب ذلك عدة نسوة »[31] الملاحظ أنّ كل من نص الرّواية والنّص الأصلي يتعلقان بموقف الحاكم بأمر الله من حرية المرأة فما ورد في الرّواية عبارة عن تخييل ونجد إحالة صريحة إلى المصدر الذّي أخذ منه هذا النّص وهذا المرسوم الذّي أصدره الحاكم بأمر الله يركز على دور المرأة ويصور لنا هذا التمّثل المقتصر على دونية المرأة وهو أمر يملك امتدادا تاريخيا.

كما أنّه امتداد للقرن الواحد والعشرين، إذ نجد في أفغانستان نجد سياسة عزل النّساء وتهميشهن وهي سياسة رسمية معلنة من خلال هذا المرسوم الذّي ينص على «عدم السماح لنساء بمغادرة منازلهن إلا بصحبة محارمهن وعدم السماح لهن بالصلاة في المساجد أو قيادة السيارات أو تلقي العلاج على أيدي أطباء ذكور »[32] هذه السّياسة الظّالمة للمرأة والمجحفة في حقها، مرتكزة على قراءة متشددة للدين الإسلامي لقوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ

وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33) ﴾.[33]

فالمرأة مازالت محكومة بهذه المراسيم التي أعلنها طالبان سنة 1997، والتّي تقوم على إلزام النّساء البيوت ومنعهن من الخروج من المنازل، إذ تعاقب المرأة التّي لا تلتزم بهذا المرسوم وهذه السّياسة المطبقة على المرأة بحجة حفظ كرامة المرأة وفق المبادئ الإسلامية.

فسياسة الحاكم بأمر الله لها امتداد لعصرنا الحالي وهي سياسة قمعية تعتمد على محاصرة المرأة وعزلها في المنزل، والتّي تنظر إلى وجودها خارج المنزل كمصدر للفتنة والفساد هذه السياسة التّي تتجسد بقاياها في العالم العربي الحالي والتّي تستعمل الدّين الإسلامي كتغطية على تلك الممارسات القمعية والعادات كإلية من آليات الدّفاع عن المصالح المرتبطة بها وضمان استدامتها"[34] مما يجعل المتعة حكر على الرّجال دون النساء.

يمتد تمثل المتعة إلى متعة الأكل وتحريم المأكولات التيّ تم سردها في الرّواية، يبين الانزياحات الخطيرة التّي وقع فيها الحكام في إطار الخلافة الإسلامية علمًا أنّ التّحريم فعل رباني والخوض فيه بمثابة تأله للحكام وخروج عن دورهم البشري القابل الحكم عليه بالخطأ والصواب.

فتحريم الأكل له امتداد ديني بتحريم المأكولات دينيًا كالخمر ولحم الخنزير والميتة، لكن الحاكم بأمر الله حرم بعض المأكولات على رعيته كالملوخية والجرجير، والدليس والمتوكلية وهذا ما ورد في نص الرواية «السنة التّاسعة من ربع قرن الحاكم صدر مرسوم بتحريم بعض مأكولات "أهل الظاهر ومنه" لقد نهيتكم عن أكل الملوخية والجرجير والدلنيس والمتوكلية ولا زلت أنهاكم بمرسوم لا يقبل النّقض لأنّي لا أرغب أن تأكلوا من موائد أهل الظاهر»[35] وبمقابل هذا النّص نجد نصا أصليا مأخوذا من كتاب الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية «حرمت الملوخيا لأنّها كانت من الأشياء المحبوبة لمعاوية وحرمت المتوكلية لأنّها تنتسب إلى الخليفة المتوكل العباسي وهذه بواعث مذهبية واضحة وحرم الفقاع لأنه مسكر ضار، وحرم الدلنيس والترمس المتعفن والسّمك الذّي لا قشر له لبواعث صحية ».[36]

لاحظنا من خلال دراستنا لرواية مجنون الحكم أنّ الرّوائي "بن سالم حميش" استعار من المؤرخين أسلوب الكتابة خاصة أثناء عرضه للسجلات والمراسيم التّي أصدرها الحاكم بأمر الله كما يظهر التّأثر بالكتب التّاريخية في منهجية الكتابة من خلال ذكر السّنة ثم الاسترسال في عرض الأحداث.

إنّ عودة بن سالم حميش إلى« التّاريخ ملتبسًا بقناع المؤلف ليستحوذ على كم هائل من المرجعية التّاريخية ليقدم صورة الشّخصية وفق منظور يتماشى وعالم الرّواية وبعد نقل

المبدع المادة التّاريخية سيتخلى عن قناع المؤرخ وهو يزج بها إلى عالم الخيال »[37]، فعودة الرّوائي لتّاريخ مفادها أنّ كثافة المرجعية التّاريخية لن تغني المبدع عن حاجته إلى التّخييل من أجل بناء عالم روائي متوازن، و"بن سالم حميش" استند إلى ثروة تاريخية مكثفة واستلهمها ضمنيا في السّرد ووظفها دون أن يشعر بها المتلقي أحيانًا إلاّ عندما يؤطر بعض الأحداث بالتّواريخ أو يشير إلى الكلام المقتبس بوضعه بين مزدوجين.

7. خاتمة:

مجنون الحكم رواية تجسد أحداثا تاريخية لشخصية حكمت مصر إبان الخلافة الفاطمية وذلك من خلال العودة إلى التّاريخ، وبالتالي تداخل الرّواية كجنس أدبي متخيل والتّاريخ كتوثيق منطقي وموضوعي للأحداث التّاريخية وهذا ما يؤكد قصدية المؤلف وقصدية النص.

- لم يكن التّاريخ ثانويًا في الرّواية إنّما كان أساسًا حقق الكاتب من خلاله علاقة وطيدة بالرّواية وقدم المعلومات التّاريخية في إطار فني جمالي وأخرج التّاريخ من إطاره الرّسمي والتّسجيلي إلى إطار الفن.

- إنّ اتحاد الرّواية بالتّاريخ أنتج نصًا جديدًا مختلفًا عن النّص السّابق الأصلي "التاريخ " فتحول الخطاب التّاريخي إلى خطاب تخييلي.

-اعتمدت رواية مجنون الحكم على نمط الشّخصية المفعلة في الحدث، والتّي تمثلت في شخصية الحاكم بأمر الله حاكم الدّولة الفاطمية، إذ قدمها "بن سالم حميش" في سياق فني روائي امتزجت فيه الحقائق التّاريخية بحقائق خيالية شكلت حياة جديدة لشخصية الحاكم بأمر الله.

- يتواجد النّص التّاريخي في ثنايا النّص الرّوائي فيلتقي التّاريخ بالرّواية ليشكلا لنا رواية تاريخية يسير التّاريخ والسّرد في الرّواية جنبًا إلى جنب وبذلك يتماهى النّص التّاريخي داخل النّص الرّوائي.

- يحضر التّاريخ في المقدمة وعلى مستوى مقدمات الأجزاء (الأبواب الأربعة) المكونة للنّص كما يرد التّاريخ في السّياق النّصي على شكل بنية سردية مستقلة محصورة بين قوسين وفي آخر الرّواية يثبت الرّوائي "بن سالم حميش" هوامش ليؤكد للقارئ أنّ السّرد المتخيل يستند إلى حقائق تاريخية.

8. قائمة المراجع:

[1] - عبد السلام أقلمون: الرّواية والتّاريخ سلطان الحكاية وحكاية السلطان، دار الكتاب الجديدة المتحدة، لبنان، ط1، 2010، ص36.

[2] - نضال الشمالي: الرواية والتاريخ، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2006، ص144، 115.

[3] - عطيات أبو السعود: فلسفة التاريخ عند فوكو، منشأة المعارف، الإسكندرية،ط1، 1997، ص174.

[4] - عبد السلام اقلمون: الرواية والتاريخ سلطان الحكاية وحكاية السلطان، ص188.

[5] - المرجع نفسه، ص 187.

[6] - بن سالم حميش: مجنون الحكم، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط2، 1989، ص15.

[7] - المصدر نفسه، ص11.

[8] - Dorit cohin, le propre de la fiction, Ed Seuil, 2001, p 35 .

[9] -بن سالم حميش: مجنون الحكم ص 10.

[10] - محسن محمد حسين: طبيعة الموضة التاريخية وفلسفة التاريخ، مؤسسة مركباني للدراسات والنشر، ط1 2012، ص33.

[11] - فولففانغ ايزر: التخييلي والخيالي من منظور الانطوبولوجيا الأدبية، تر: حميد الحميداني – الحلالي الكدية – الناشر الأول بألمانيا، ط1، 1998، ص11.

[12] - Thomas Pavel, univers de la fiction, Ed Seuil, paris, 1988.

[13] - بن سالم حميش: مجنون الحكم، ص15.

[14] - حميد الحميداني: القراءة وتوليد الدلالة: تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2003، ص53.

[15] - محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، 2010، ص196.

[16] - بن سالم حميش: مجنون الحكم، ص17.

[17] - المصدر نفسه، ص17، 18.

[18] - Paul Riceur, histoire et vérité, Ed seuil, paris, 1967, p 39.

[19] - بن سالم حميش: مجنون الحكم ص،17 ،18.

[20] - Paul Riceur, histoire et verite, p 49.

[21] - Paul Ricoeur, la mémoire, l'histoire, l'oubli, Ed seuil, paris, 2000, p 205.

[22] - ج، هيوسيلقومان: نصيات بين الهرمينوطيقا والتفكيكية، تر: حسن ناظم وعلى حاكم صالح، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2002، ص 315.

[23] - بن سالم حميش: مجنون الحكم، ص 94.

[24] - محمد عبد الله عنان، كتاب الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، دار الرافعي بالرياض، ط3، 1983، ص166.

[25] - المرجع نفسه، ص149.

[26] - حافظ صبري: أفق الخطاب النقدي، دراسات نظرية وقراءات تطبيقية، دار الشرقيات للنشر والتوزيع، ط1، 1996، ص 49.

[27] - ينظر: دكتور نوح الأول جنيد "معيارية التناص في تحليل الترجمة "دراسة نصية، مجلة اللغة العربية، العدد 29،2012، ص 183، 184.

[28] - بن سالم حميش: مجنون الحكم، ص 241.

[29] - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[30] - المصدر نفسه، ص 43.

[31] - ابن ثغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة ،1993، ط1، ج 4، ص 236.

[32] - أماني صالح: حالة المرأة في العالم الإسلامي، سبتمبر ،2016، مركز الحضارة للدراسات السياسية، ص 223.

[33] - سورة الأحزاب، الآية 33.

[34] -أماني صالح: حالة المرأة في العالم الإسلامي، سبتمبر ،2016، مركز الحضارة للدراسات السياسية، ص 224.

[35] -بن سالم حميش: مجنون الحكم ص 32.

[36] - محمد عبد الله عنان: الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ص173.

[37] - حفيظة طعام: التخييل في الرواية المغاربية، دار الحكمة، ط1، المكتبة الوطنية الجزائرية، أدرار، الجزائر ،2018، ص 135.